عـــودة مـــن المـــنـــفـــى

كامل شياع

عدت إلى العراق قبل عامين، تاركاً ورائي قرابة خمسة وعشرين عاماً من الهجرة القسرية. تلك العودة إلى ما حسبته ملاذي الآخر أو الأخير، عللتها لنفسي بأن فصلاً من حياتي صار ماضياً ينبغي طيّه فطويته، وأن فصلاً آخر قد فتح إحتمالاته، على مصراعيها، أمامي فاستجبت إليه. لم أقصد أن أكون مغامراً حين مضيت في رحلة العودة التي لم أتخيلها منذ البداية نزهة في عالم الأحلام، ولم يأخذني إليها حماس رومانتيكي. لقد شعرت فقط بأنني مدعو لرحلة نحو المجهول، وفي ذلك يكمن سر أنجذابي اليها.

رحلة العودة وضعتني شيئاً فشيئاً إزاء اختيارات صعبة لم أكن أعي دلالاتها أو أقدر أبعادها، وحررتني من الارتباط بمكان محدد على حساب الزمن الخاص للتجربة الذاتية، واوقفتني بعيداً عن الأفكار المجردة حول التاريخ العام لأكتشف تنوّع التاريخ المحلي وتعقيده والتوائه. ومن يبحث .... يجد!!

بجانب التجربة الفعلية والتاريخ الحي، وضعتني هذه الرحلة وجهاً لوجه أمام موت جارف، وشيك وعبثي. لا اعني هنا بالطبع أفكاراً أو أخيلة أو هواجس تستبق حدث الموت الرهيب، بل حقائق ملموسة يمتزج فيها الموت بالحياة ويتلازمان في كل لحظة. الموت في مدينة كبغداد يسعى إلى الناس مع كل خطوة يخطونها، فيما تتواصل الحياة مذعورة منه أحياناً، ولا مبالية إزاءه في أغلب الأحيان. ما أكثر لافتات الموت السود في المدينة؟ كم من الناس واسيت بفقدان أب أو إبن أو أخ أو قريب؟ كم مرة قصدت مجالس التأبين معزياً؟ كم مرة وجدت نفسي عاجزاً عن إظهار تعاطفي مع ذوي الضحايا البريئة المجهولة لي؟ كم بكيت في سري حزناً على مشاهد الدماء المسفوكة في كل مكان؟

بعد هذا الإنغمار المكثف في وقائع الموت وأخباره، يسألني البعض أحياناً، ألا تخاف من الموت؟ فأجيب، أنا الوافد أخيراً إلى دوامة العنف المستشري، أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني، وأعلم أنني أخشى بغريزتي الإنسانية لحظة الموت حين تأتي بالطريقة الشنيعة التي تأتي بها، وأعلم أنني قبل ذلك كله كثير القلق على مصير أخي ومرافقيّ الذين بملازمتهم لي في سكوني وحركتي يجازفون بحياتهم وحياة عوائلهم. رغم ذلك كله، وبمقدار ما يتعلق الأمر بمصيري الشخصي، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضى. وما فعلت ذلك كما يفعل أي إنتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت. وهذه الحياة ينبغي ألا تكون بالضرورة آمنة شرط أن تشبع الرغبة في الوجود والفعل والانغمار.

منذ سنوات وأنا أعتقد، ربما بعد قراءة جان بودريار، بأن النهاية حاصلة في الحاضر. إنها تلازمنا في كل لحظة نعيشها. وحين ندرك ذلك، لا يعد هناك ما يستحق الانتظار. غير أن تسليم النفس للنهاية ... ليس استسلاماً، إنه بداية السير نحو التخوم أو بينها ..... هناك حيث تتقلص المسافات.

وعليّ أن أعترف بأنني لم أكن غير مكترث بالموت دائماً. فبعد إغتيال بشع لأحد الرفاق في شقته، صرت للمرة الأولى أنام وبجانبي مسدس جاهز للإطلاق. الأسلوب الشنيع لتعذيب ذلك الرفيق والتمثيل الوحشي بجسده، تركني لليال عديدة عرضة لكوابيس مرعبة. أي إرادة تمكنني من إيقاف انثيالات العقل الباطن، والتشبث غير الواعي بالحياة؟

عندما أتخيل الآن الحدود الدنيا والقصوى لهذه التجربة، أجد نفسي مسكوناً بروح متقشفة... روح بالحد الأدنى تقبل الواقع كما هو، ولا تسند لنفسها سلطة معرفية كبيرة أو تسقط عليه أوهامها أو تجرفها إحتمالاته القصوى. هذا كما أعتقد ثمن الاقتراب من التاريخ كمادة حية، كحالة هشة في طور التشكل والإندثار. فلا تجربة حقيقية دون تفاصيل جزئية وملموسة.... دون إزاحة أو تأجيل.

للعودة من المنفى، في حالتي، سبب عاطفي أكيد. إذ وجدت نفسي في علاقة لا أقوى على إستبدالها أو تعويضها. إنها العلاقة مع الوطن كمجموعة من البشر، والتقاليد، الأمكنة.... كفضاء من ضوء وهواء، من فوضى وخراب وألم. بعد أن جربت هذه العلاقة صرت متيقناً من جدواها ومعناها بوصفها حقلاً للممارسة اليومية والفكرية، لكنني لم أزل أشك بأن حب الوطن من صنف الفضائل!. فقد يهيم المرء حباً بوطنه، المصنوع من صور وخيالات، وهو بعيد عنه، وقد لا يقيم لنفسه علاقة إخلاقية معه وهو يعيش في داخله، وقد يخدم بعضنا الوطن من موقف متجرد إلا من الوازع الإنساني، وقد يدمره آخر يتشدق بإسمه ليل نهار. ما هو ثابت في الوطن كأرض وتاريخ لا يلزم الجميع بالتماهي التام معه أو التساوق مع حركته وتحولاته. وهكذا فأن ضعف الحماس للوطن أحياناً لا يدخل في باب الرذيلة أو الخيانة.

الوطن محطة في حياة الإنسان تتفرع منها جميع المحطات الأخرى التي قد تؤدي إليها أو لا تؤدي، لكنها تحكمنا، بقوة شبه قدرية، بأن نظل متعلقين بها رمزياً حتى لو هجرناها فعلياً، أن نظل مشدودين إليها بقرابة دم حتى لو أودعنا مصائرنا خارجها.

ليس في عودتي من المنفى نكوص نحو الماضي، استبدال نمط حياة "متخلف" بآخر متطور، تفضيل عالم عنيف حدّ الهمجية على عالم مهذب ومتحضر، وهجر السلامة والأمان لإرتياد مكان مجهول في "قلب الظلام"... ظلام التاريخ. إذا كانت هناك عودة بالنسبة لي فهي مغادرة تجربة استنفدت نفسها تدريجياً، كسر شرط حياتي غدا عادياً بغية إكتشاف ما هو غير مألوف أو مضمون. هذه الهجرة المعاكسة لا تفترض مسارات محددة، ولا ترتكز على ثنائيات ثابتة من قبيل الوطن/ المنفى، الداخل / الخارج، الشرق/ الغرب، الهوية/ الآخر..... وهي كذلك لا تفترض حركة بشوطين واحد للذهاب وآخر للإياب كما توحي قراءة رحلة يوليسيس التي يعدّها البعض الصورة النمطية للسرد، ولا تأخذ طابع علاقة مغلقة للنفي ونفي النفي والتركيب. فلرحلة النفس في الزمن مستويات عدّة وتفرعات شتى. ولأنها مقبلة دائماً على أفق مفتوح يمكن أن يمضي بها العدّ إلى أكثر من ثلاث مراحل.

عدت إلى العراق قبل عامين، لأدرك أنني بلغت غاية ما صبوت إليه: أنهاء شعوري بالسأم من الإكتفاء بعدّ سنوات الهجرة، من البقاء بعيداً عن وطن طالما تخيلته جميلاً وأنيساً رغم جنونه وقسوته، ونزع ثوب الغربة عن نفسي لأرى الواقع كما هو عارياً من اغلفته وبريقه، النطق بلغة المقيم في الوادي لا المتطلع من أعلى التل، والتعايش بأدنى التوقعات مع مواطن البؤس والغرابة والقسوة.

عدت إليه فوجدته يمضي في متاهة تاريخية .... لا يمكنها أن تكون إلا مؤقتة. وأنا أحد شهودها: أعيش تذبذباتها، أراقب تقلباتها، أتفاعل مع تفاصيلها، وأثير أسئلة حولها، وأراجع قناعات بشأنها، وأكوّن أحكاماً عنها. أنني منغمر بتجربة غيّرت حساسيتي إزاء كل ما يحيط بي. فما عادت تستوقفني كثيراً الأفكار المسبقة والمقارنات الجاهزة والرغبات التي تعظ بما ينبغي أن تكون عليه حالة الأشياء. ورغم أن الحلم السياسي الذي أسرني ظل هو هو ، صرت أشعر بالقرف من كل خطاب سياسي يعمد إلى إجترار عذابات الضحية، التنكر من المسؤولية عن الماضي، إستغلال الرضوض النفسية التي تستفز الأحياء أو تخطف منهم وعيهم.

كل ما أبحث عنه وسط هذا الضجيج الزائف هو الهدوء، الصدق، ورفعة الشأن العام.

العراق فتح ذهني وقلبي لسطوة الحاجة الآسرة القاسية على ناسه. وهو، كما يبدو لي الآن، حالة مثالية لفهم ما يجري في العالم بأسره. فلأنه بلغ القاع صار يتيح، بشكل أفضل، رؤية منابع الحروب والهمجية والمصالح الأنانية، الكذب والفساد والعنف والنسيان المتعمد للحقيقة أو السهو عنها. كل، من موقعه، مهموم بالعراق ومتورط فيه:أميركا العظيمة المتجبرة والسطحية، الديمقراطيات الغربية المرتبكة، الشعبويون من كل الأنواع، حاملو الشعار اليساري، اليمينيون والمحافظون، العروبيون، الأصوليون، تجار الموت، رجال الأعمال،حاملو ألوية العصبيات الخادعة.....كل خبر يأتيني عن بؤس هذا العالم وتعاسته يحيلني الى "مستعمرة" سوء إسمها العراق.. هي درجة الصفر التي لا موقع لها على خرائط المكان أو مقاييس التجربة، لكنها تتيح، في الوقت نفسه، فهم أوجه الزيف في عمارة زمننا الماضي في مسارات مجهولة.

عدت إلى العراق بعدما اكتشفت أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعي مرتبط بالجماعة... فلا فعل ولا حضور دون مشاركة وتضامن.

عدت من المنفى وأنا مدرك أن لا عودة لي منه لأنه يجدّد نفسه في كل تماس مع ما هو مألوف أو غير مألوف. وسوف تلازمني أشباحه كما لازمتني أشباح الوطن.

كل إنسحاب من المنفى تعميق لجذوره وتمويه لخفاياه. أي أوجاع سرية يورث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن؟

كانون الأول / ٢٠٠٥

متـــــابعـــــات

على قاعة الاتحاد العام للادباء والكتاب

البتوشي وجهوده في خدمة الثقافة الاسلامية

علي ياسين

بحضور عدد كبير من الادباء والمثقفين ألقى الباحث والشاعر حسين الجاف على قاعة الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق محاضرة بعنوان "الشيخ البتوشي وجهوده في خدمة الثقافة الاسلامية" حيث تتبع المحاضر فيها سيرة شاعر كردي عاشٍ في شبه الجزيرة العربية موضحاً مصادر ثقافته وشاعريته وارتباطه الصميم بالعراق ومستشهداً بقصائده المشهورة التي اكدت حنينه الى وطنه الذي باعدته المسافات عنه.

إني أحن الى العراق ولم أكن لا من رصافته ولا من كرخه
لكنِ في بغداد لي من قُربهُ أشهر إليّ من الشباب وشرخه

وأشار الجاف الى حياة البيتوشي قائلاً: شاءت الاقدار ان تكتب الخلود لاسماء بعض الاماكن المهجورة والقرى المجهولة التي انجبت علماء من اعلام العلم او ولدت قطباً من اقطاب الادب، فنسب اليها ذلك العلَم او القطب، فالبيتوشي، خالد بعلمه وبيتوشي مخلدة به، وابو العلاء المعري خالد بفكره وشعره والمعرة مخلدة به، وشكسبير خالد بشعره ومسرحياته و(سترانفورد اون ايفن) مخلدة به وهكذا.

واضاف المحاضر: البيتوشي، هو الشيخ عبد الله بن الشيخ حمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن عز الدين الشافعي الكردي، وبيتوش قرية صغيرة في منحدر الجبل المشرف على نهر الزاب الاسفل وكان البيتوشي منحدراً من بيت دين وفضل وعلم وتدريس ونبغ من اهله رجال تولوا تدريس العلم في بيتوش ولا نعرف متى ولد، إلا ان الارجح كما يقول الشيخ محمد الخال مستنداً الى بعض الدلائل التأريخية، ان ولادته كانت بين سنتي ١١٣٠ و١١٤٠ هـ ويورد المحاضر احدى رسائل البيتوشي عن حصار مدينة البصرة في عصره وعلق عليها بالقول: إن هذه الرسالة لم تذكر في أي مصدر عدا كتاب العلامة الشيخ محمد الخال، على ما لها من قيمة ادبية فضلاً عن انها تؤرخ لحادثة مهمة في جزء مهم من عراقنا وفي فترة دقيقة من تأريخها وكان العلامة الخال قد عثر على هذه الرسالة في مجموعة خطية موجودة في مكتبة المرحوم الملا محمد جلي زاده، وهو والد المفكر الكردي المعروف الاستاذ المرحوم مسعود محمد، في كويسنجق، ويبتدئ البيتوش رسالته قائلاً: وبعد يا سيدي.. بينما نحن نلجأ الى الله تعالى في ظلم الاسحار ونتضرع اناء الليل واطراف النهار نستدعي منه ان يردكم الى الوطن رد الروح الى البدن ويحيي بكم المراق الذي افناه فيكم الفراق، وبلغت روحه بعدكم الى التراق، لا سيما لكشف ما نحن فيه من المصيبة التي طمَّ سيلها وعمّ ويلها وانسحب على الخاصة والعامة ذيلها -أعني محاصرة البصرة- التي استعرت نارها وانتشر شرارها، وطارت اخبارها الى ان يقول: لقد استغاثت البصرة قبل قدومكم بالعراق كم مرة "يقصد والي بغداد" فكانت كاستغاثة الضرّة بالضرّة، ولم ينفعها، مثقال ذرة، والآن ظهر فيها الخلل والفساد من طول الحصار ونفاد الزاد فجاع العيال، وهلك الاطفال، وبيعت في سوق الكساد نفائس الاموال..

ويختتم الشاعر الجاف محاضرته مؤكداً: كان قلب البتوشي، متعلقاً بوطنه، كردستان برباها وجبالها وتحدراتها ووديانها، وطيورها الغريدة، ويقول البتوشي في آخر رسالته العراقية: لكنِ لا عيب على نازح صدّع قلبه، تذكراً اوطانه، واخل من طول حنينه الى اخوانه ففي دماغي من السوداء التي هي أسوأ داء، ما لو صُبَّ في الفرات لانقلب عليها او حمل به رأس غيري، لا ندقَّ عنقه لو كان فيلاً.

توفي البيتوشي في البصرة، بعد ان ألمت به وعكة صحية عن عمرٍ ناهز الثمانين سنة، غريباً عن دياره وبعيداً عن اهله وذويه، ودفن في قبر غير معلوم لابناء هذا الزمن.

عدد جديد

مجلة الاسلام والديمقراطية

عرض- عبد الزهرة المنشداوي

صدر العدد الجديد من مجلة (الاسلام والديمقراطية) خلال هذا الشهر وحفل بالعديد من المواضيع والافكار التي اهتمت بمفهوم الديمقراطية وسبل ترسيخها في مجتمعاتنا.

الافتتاحية التي استهلت بها محتوياتها بقلم رئيس التحرير اهتمت بموضوع الآمال في قيام الديمقراطية في العراق والسلبية التي رافقت هذه الامال التي يجب ان لا تدعو إلى التخلي عنها وفي باب الدراسات ساهم أ.د.احسان محمد الحسن بكتابة دراسته المعنونة (الحرية السياسية في الاسلام) ضمنها مباحث رئيسة حول التحديد العلمي للحرية والاسس الانسانية والاخلاقية لها فيما انصب المبحث الاخير من الدراسة حول معوقات الحرية كذلك ساهم الكاتب سعد مطر عبود بموضوع التربية الديمقراطية وفي هذا الباب كتب ايضا محمد مبارك دراسة عن (المنطق ونظرية الخلق بين اليونان والفكر العربي/ الاسلامي الوسيط) بينما حوى حوار العدد لقاء مع الكاتب والباحث ضياء الشكرجي حول القوى الاسلامية الديمقراطية حاوره توفيق التميمي. أما ملف العدد فخصص للجزء الثاني في نقاش مواضيع هشاشة الطبقة وشقاء الديمقراطية في العراق للدكتور عامر حسن فياض والخيار الديمقراطي في العراق بين استبعاد الاخر واستعباده للدكتور حميد فاضل حسن بينما ساهم الكاتب صلاح عبد الرزاق بالكتابة عن التصور الاسلامي المعارض للديمقراطية وللكاتب محمد خضير سلطان مساهمة ايضا فكتب عن الوجه الغائب عن تحليل الديمقراطية العراقية.

مع كل ذلك حفل العدد بموضوعات متنوعة وغنية في مقالات كتبها الدكتور نجاح كاظم وعباس امير وعبد الحليم الغنيمي ومحمد قاسم الياسري اضافة إلى ابواب المجلة الثابتة.

نشيج

عند قدمي رشدي العامل

عادل العامل

أُبعِدُ الآنَ
عنْ وجهِكَ السمَّحْ..
دودِ الثرى؟!
مِسحةِ الحزنِ؟!
أم فرحةِ القتلةِ؟!
ما الذي يمكن..
الآنِ..
أن أفعلَه.
أنتَ..
تحتَ الثرى..
وانا في اغترابيِ..
العقيمِ..
أبكي..
فلا دمعةٌ..
تُطفئُ الحزنَ..
أوتقدرِ الآنَ..
أنْ تحملَه!
هل أقولَ..
كما تقتضي الحالُ..
"يرحمكَ اللّه"..
فأستفزّ نوافذَ بغدادَ..
والبرتقالِ..
ودجلةِ..
والصحبِ..
والمسألةِ؟!
إن تكن متَّ..
حقّاً..
فقد قتلوا قبلكَ..
الروحِ..
واللونِ..
والأسئلةْ!

١٩٩٠/٩